عبد الناصر المبدع

بقلم الدكتور قسطنطين زريق

قوى ثلاث ، اصيلة مبدعة ، هي التي تبني الحياة وتصنع التاريخ : قوة الايمان الملتهب المفجّر ، وقوة العمل الجاهد المعمّر ، وقوة العقل المنظم المدبّر . وبقدر ما توفر الشعوب لانفسها من هذه القوى ، يكون تحقيقها لحريتها وسيادتها ، ولكرامتها وعزتها . فاذا ما وقفنا اليوم ، بل اي يوم ، نتأمل سيرة الرئيس العظيم جمال عبد الناصر وتراثه ، ونستمد العبر من رسالته وجهاده ، وجب ان نضع نصب اعيننا ما دعا اليه وما قام به لامداد شعب مصر والشعوب العربية جمعاء بهذه القدرات الفاعلة ، وبالتالي لتأهيلها للكفاح المجدي من اجل بقائها وتقدمها وابداعها .

لقد فجّر عبد الناصر في الشعوب العربية طاقات هائلة ، مصدرها ايمانه العميق الدافق بحقوق هذه الشعوب ، وبقدرتها الذاتية على النهوض باعبائها وصنع قدرها . ومبعث هذا الايمان اصالة الزعيم الشعبية الراسخة : فقد نبت في قرية من قرى الصعيد ، من اعماق ارض مصر وجذور ماضيها المديد ، ومن صلب شعبها المحروم وجماهيرها الكادحة ، ونشأ بشارك ابناء قومه همومهم ومآسيهم ، ويستمد من هذه المآسي ايمانا بهم وتحرّقا لتحطيم قيودهم .

واخذ هذا الايمان يلهب قلبه وفكره وضميره ، ويتصاعد بالاختبارات المريرة التي عاناها من الفوضى والفساد في بلده مصر وفي حرب فلسطين عام ١٩٤٨ ، الى ان ملك عليه لبه ، واطلقه يرود الثورة التي كانت تضطرب في نفوس الشعب ، ويقود سيرتها عبر المصاعب والمصائب الى مكاسبها الجليلة ومنجزاتها الرائعة .

لقد كانت هذه الثورة ، على تعدد جوانبها وميادينها ، وعلى اختلاف مناحيها ، تتجه الى هدفين مترابطين : التحرر والبناء ، التحرر من الاستغلال بشتى انواعه واشكاله ، وبناء المجتمع الجديد على اسس الولاء العربي ، والعدل الاجتماعي ، والانطلاق التقدمي مجاراة للعصر وصنعا للمستقبل .

ومن هنا كان الجهاد الثوري الذي قاده لتحرير مصر من قيود الاستعمار والتحكم الخارجي ، ولجعل سيادتها في يدها ، وسلطتها ملك ابنائها . ومن هنا كانت رؤياه الصادقة الباهرة ان تحرر مصر لا يتم الا بتحرر البلاد العربية كافة ، لان مصر جزء من الوطن العربي الكبير ، وعضو من اعضاء الجسم العربي الواحد المتكامل . ومن هنا كذلك كان كفاحه من اجل فلسطين ، بل وضعه هذا الكفاح في صميم المعركة التحررية الشاملة ، لان قوى الاستعمار ومطامعه تتجمع وتتضافر في هذه البقعة المركزية من الكيان العربي ، ولأن قضية فلسطين تمثل هذا الاستعمار بافظع اشكاله وارهب آثاره .

هذا من حيث التحرر من الاستغلال الخارجي . اما من حيث التحرر الداخلي ، فقد كانت ثورة عبد الناصر ثورة على استغلال القوي للضعيف ، والغني للفقير ، والمنعم المسرف للمحروم الكادح ، وكان جهاده جهادا من اجل بناء مجتمع قائم على قاعدة شعبية راسخة سليمة ، وعلى تنظيم اشتراكي يكفل الكفاية والعدل والمساواة ، ويفسح المجال لتقدم متسع متسارع . وهكذا تكون معركة التحرر متصلة بمعركة البناء اوثق اتصال ، بل انهما وجهان لمعركة واحدة ، اذ لا تحرر من اي استعمار او استغلال دون بناء ، ولا بناء صحيحا او صامدا الا بيد شعب متحرر .

ان المقام لا يتسع لتبيان اهداف الثورة الرائعة التي قادها جمال عبد الناصر وتفصيل منجزاتها ، سواء في المجال المصري ، او في المجال العربي ، او في المجال العالمي . ولذا قصرت النظر في كلمتي هذه على محركاتها ودوافعها التي اسبغت عليها معانيها ، وابدعت نتائجها . ان المحرك الاول كان قدرة عبد الناصر على ايقاظ الجماهير من كبوتها ، واطلاقها في مسيراتها ، واحياء قواها ، واستنهاضها لبذل جهدها ونفسها في المعارك المختلفة التي تخوضها . ولما كانت هذه القدرة ممكنة الوجود والفعل لولا التجاوب الحي بينه وبين الجماهير ، ولما تولد هذا التجاوب لو لم يكن عبد الناصر ملتحما بها مجسدا في دعواته وفي اعماله الهموم التي كانت تقلقها ، والآلام التي كانت تبرحها ، والآمال والمطامح التي كانت تجيش في كيانها . ان مصدر هذا الالتحام والتجاوب ايمان مزدوج : ايمان عبد الناصر بالشعب ، وايمان الشعب بعبد الناصر . لقد اكد عبد الناصر وشدد : «ان الشعب هو المعلم العظيم ، المعلم الخالد» . ومن الكثير الكثير الذي ردده بهذا المعنى ، ما قاله عن منطلق الثورة التي قادها على الحكم في مصر : «ان اعظم ما في ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ان القوات التي خرجت من الجيش لتنفيذها ، لم تكن هي صانعة للثورة ، وانما كانت اداة شعبية لها» (١) .

ان هذا الايمان المفجّر للطاقات البشرية كان خلال

(١) الميثاق الوطني ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ص ٤٥

التاريخ وما يزال قوة هائلة في انتشار الرسالات والدعوات والعقائد ، وفي انبعاث الآمال والمطامح في صدور الشعوب، وفي تحرك الشعوب لتحقيقها .

على ان هذه القدرة التي بلغ منها عبد الناصر شأوا لم يبلغه غيره في تاريخ العرب الحديث ، وقل من بلغه في مدى التاريخ العربي او التاريخ العالمي ، قد رفدها عنده وعي عميق للقدرتين الاخريين الاصيلتين المبدعتين : قدرة العمل الدائب المنتج ، وقدرة العلم المنظم المطور . فبالعمل الصامت الصابر ، الجلد المتفاني ، تحول الصحاري الى حقول خضراء ، وتشاد المعامل والمصانع ، وتبنى منظمات الحكم ومؤسسات المجتمع ومنشآت الحضارة ، وتترجم الرؤى والاحلام الى حقائق حية ووقائع تغدو هي ذاتها مصادر فعل وابداع .

لقد جاء في الميثاق الوطني الذي قدمه الرئيس الى المؤتمر الوطني للقوى الشعبية يوم ٢١ مايو ١٩٦٢ : «ان العمل الانساني الخلاق هو الوسيلة الوحيدة امام المجتمع لكي يحقق اهدافه . العمل شرف ، والعمل حق، والعمل واجب ، والعمل حياة . ان العمل الانساني هو المفتاح الوحيد للتقدم» (١) . ومن الشواهد العديدة على تقديره لهذه الحقيقة ودعوته المستمرة لادراكها وتطبيقها ، قوله من خطاب له في عيد النصر بالاسماعيلية في ٢٤ ديسمبر ١٩٦٤: «فاذا اردنا ان نتعرض للاستعمار واذا اردنا ان نتعرض للصهيونية ليس لنا من سبيل الا ان نعتمد على انفسنا وان نعمل عمل متواصل ، ونعمل عمل مستمر . نعمل في ميادين الصناعة التي تأخرنا عنها ، نعمل في ميادين الصواريخ ، نعمل في الميادين الذرية ، نعمل في الميادين الزراعية ، نعمل في كل ميدان: بهذا نستطيع ان نبني قوتنا الاصيلة ، قوتنا الحقيقية ، بهذا نستطيع ان نبني بلدنا ، بهذا نستطيع ان نتكلم ومعنا قوة» (٢) .

ولكن ما لنا وللاقوال والدعوات ؟ الم تكن حياة المجاهد العظيم ذاتها مصداقا لرؤياه النافذة هذه ومثالا مجسدا للعمل الحثيث ليل نهار ، للعمل الذي لا يهدأ ولا يكل ، للعمل الذي لا يوهنه مرض والم ، للعمل المرهق في سبيل الواجب ، للعمل الذي بذلت به الحياة دفاعا عن حق المناضلين في الحياة ؟ فلا عجب ان يستمد منه صحبه هذه الرسالة الناطقة الحية، فيهبوا بعد استشهاده للتقرير الحاسم وللعمل الثابت ، ويدعوا ، بلسان اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي ، الى تحويل طاقة الحزن على العظيم الراحل : «الى طاقة ايجابية للعمل ، طاقة تفكر في عمق وهدوء ، وتقرر في حسم ووضوح ، وتتحرك في قوة وايمان ، وتنفذ في اصرار واتقان ، وتدافع في صمود وتفان » (٣) .

والعمل الجاهد الدائب ـ العمل الذي هو شرف، وحق ، وواجب ، وحياة ـ هو مبعث الانتاج وبالتالي مصدر الثروة والقدرة القومية . لقد ملأت اذهان الناس مفاهيم توزيع الثروة والعدالة الاجتماعية عند عبد الناصر حتى طغت على مفاهيمه واعماله في سبيل امداد الثروة الوطنية واغناء القدرة القومية : بالتزريع والتصنيع والتعمير ، وباستغلال الموارد الطبيعية او في استغلال ، وبالانشاء والانجاز في كل حقل ومجال . لا ننس انه هو الذي اقر ، وما اصدق ما اقر ! : «ان الانسان العربي قد استعاد حقه في صنع حياته بالثورة . ان الانسان العربي سوف يقرر بنفسه مصير امته على الحقول الخصبة ، وفي المصانع الضخمة ، ومن فوق السدود العالية ، وبالطاقات الهائلة المتفجرة بالقوى المتحركة . ان معركة الانتاج هي التحدي الحقيقي الذي سوف يثبت فيه الانسان العربي مكانه الذي يستحقه تحت الشمس. ان الانتاج هو المقياس الحقيقي للقوة الذاتية العربية ، تعويضا للتخلف واندفاعا للتقدم ، ومقدرة على مجابهة جميع الصعاب والمؤامرات والاعداء وقهرهم جميعا وتحقيق النصر فوق شراذمهم المندحرة» (٤) .

وبعد ، فان ايمان عبد الناصر بالعمل الدائب المنتج كان ملتحما بايمانه بالعلم المنظم المطور . وهنا ايضا لم يبد اثر هذا الايمان باهرا لعيون الناس ، لان العمل العلمي بطبيعته هادىء صامت ، ولانه يتطلب من الاعداد والامداد والمثابرة ما لا يتطلبه اي عمل ، ولأن نتائجه ، وبخاصة في البدء ، تأتي متدرجة متعرجة. على ان من الانصاف للرسالة الجليلة التي تلقيناها ، ومن الخير لحاضرنا ومستقبلنا ، ان نبرز هذا المعنى من معانيها ونتدبره ونؤكده ، فان اي من يستعرض سيرة القائد العظيم ، القائد الذي سبر نفوس الجماهير وآمن بتحركها ، لا بد من ان يعجب مما كان له ايضا من يقين وايمان بقدرة العلم الخلاق ، العلم المنطلق والباعث للانطلاق ، العلم الذي به نغدو من اهل هذا العصر ونفتح ابواب المستقبل ونخترق الآفاق. هاكم ما قال في احتفال جامعة القاهرة بيوبيلها الذهبي في ٢١ ديسمبر عام ١٩٥٨ : «ان العلم يتقدم بسرعة مذهلة ، وعلينا ان نسارع الى موكبه ، وذلك يفرض علينا مزيدا من اعداد انفسنا لكي نستطيع ان نلائم ما بين انفسنا وبين العصر الذي دخلنا فيه .... لم يعد يكفينا في العالم المتحضر ان نفخر باننا في هذا الاقليم قد رفعنا مشعل الحضارة لاول مرة ، ومن الاسكندرية ، فتسلمته اثينا . كذلك لم يعد يكفينا كعرب ان نباهي باننا حفظنا علوم الحضارة وافكارها فيما كانت اوروبا غارقة في ظلام القرون الوسطى .... لم يعد (يليق) بآمالنا ان نعيش عالة على الاخرين ، ولا عاد يليق بهذه الآمال ان تتعلق بالماضي ، وانما علينا ان نتحول الى قوة خلاقة لا تأخذ من الاخرين، ولكنها تعطيهم ، وتساهم في صنع المستقبل بطريقة ايجابية بناءة ، وان نعد انفسنا في هذا السبيل لرحلة طويلة لا نهاية لها ، فان العلم والفكر يسيران الى الازل من غير حد او نهاية» (٥) . وهاكم ايضا ، من عديد ما قاله في هذا الصدد : «ولقد كان العالم في الماضي ينقسم الى قسمين شعوب غازية وشعوب مقهورة ونحن الان نرى القسمة تتخذ شكلا اخر شعوب تعلم وشعوب لا تعلم ولسوف تصبح القوة نصيب الذين يعلمون اما الذين لا يعلمون فان الحرية بالنسبة لهم تصبح كلمة جوفاء

(١) الميثاق الوطني ، ص ١١٣

(٢) خطاب الرئيس عبد الناصر في عيد النصر بالاسماعيلية ، مصلحة الاستعلامات ، الجمهورية العربية المتحدة ، ص ١١

(٣) تقرير اللجنة المركزية العليا للاتحاد الاشتراكي ، الاهرام ، عدد ٢٠٦١٥ ، تاريخ ٦ـ١٠ـ٧٠ ، ص ٣

(٤) الميثاق الوطني : ص ٨٧

(٥) قال الرئيس ، مجموعة خطب واحاديث الرئيس عبد الناصر، دار الهلال ، ص ٤٦٦ ـ ٤٦٧

لا تحمل في طياتها أي قيمة او أي عمق . من هنا كانت عقيدتي ان الحرية اللازمة لصنع المجتمع الديمقراطي لا بد ان تنهض على اساس من العلم . بل هي بحكم العصر وطبيعته لا يمكن ان تنهض على غير هذا الاساس» (١) .

من هذه العقيدة الصادرة عن رؤيا ثاقبه جلية ، كان دعمه الضخم للجامعات ودور العلم ، ورعايته لاعياد العلم السنوية وحرصه على حضورها والقاؤه فيها خطبا هي من اروع ما قال ومن اجل ما يمكن ان يقال، وانشاؤه لجوائز الدولة التقديريه والتشجيعيه للعلوم ، وتكريمه للمبرزين من الباحثين ومن الطلاب ، وارساله البعثات الوافره للتخصص في مختلف المرافق العلمية ، وتأسيسه للمركز القومي للبحوث الذي اصبح يضم الان الفا وخمسماية باحث وباحثة ويملك احدث المعدات، واشرافه بنفسه على انشاء معهد الطاقة الذرية ، ورعايته للعديد من معاهد البحوث الاخرى في مختلف الاختصاصات ، واقامته من اجل هذا كله وزارة خاصة بالتعليم العالي واخرى خاصة بالبحث العلمي ، ودعوته الدائمة ، فكرا وعملا، نظرا وتنفيذا ، الى التسلح بالعلم لانشاء دولة عصرية قادرة على التخلص من شرور التخلف ، وعلى مسايرة ركب الحضارة ، بل على المبادأة والسبق والابداع .

لقد كان عبد الناصر ملهم الثورة الشعبية العربية ورائدها ، على ان مفهومه للثوره كان واسعا عميقا ، عجبا حقا . فمما اقره في الميثاق الوطني ايضا : «ان العمل الثوري لا بد له ان يكون عملا علميا . ان الثورة ليست عملية هدم انقاض الماضي ، ولكن الثورة هي عملية بناء المستقبل . واذا تخلت الثورة عن العلم فمعنى ذلك انها مجرد انفجار عصبي تنفس به الامة عن كبتها الطويل ولكنها لا تغير من واقعها شيئا . ان العلم هو السلاح الحقيقي للارادة الثورية ، ومن هنا الدور العظيم الذي لا بد للجامعات ولمراكز العلم على مستوياتها المختلفة ان تقوم به . ان الشعب هو قائد الثورة ، والعلم هو السلاح الذي يحقق النصر الثوري» (٢) . وفي خطبته بجامعه القاهرة يوم عيد العلم في ١٤ ديسمبر عام ١٩٦٤ عرّف الثورة بقوله : ان الثوره ليست فورانا عاطفيا وانما الثورة في اصالتها هي علم تغيير المجتمع» ، واضاف: «ولا يتغير المجتمع بالغضب على ما كان فيه ، وعدم الرضا بالاوضاع التي سادته ، وانما يتغير المجتمع بتحليل علاقات القوى الاقتصادية والاجتماعية فيه ، واعادة تشكيلها على اساس جديد لصالح اوسع الجماهير» . هذا في البناء الداخلي ، واما في النطاق الدولي فان المعركة من اجل الحرية وضد الاستعمار هي عنده : «اولا معركة علمية سياسية واقتصادية واجتماعية اخطر ما فيها علينا ان الطرف الاخر المواجه لنا ما زال يملك حتى الان من اسباب العلم اكثر مما نملك» (٣) .

ان تراث عبد الناصر تراث ضخم متعدد الجوانب غني المضامين . ولا غرابة في أن تتعدد وجوه نظرنا اليه وتاملنا اياه وتقديرنا للاهم الابقى من روائعه . وفي رايي المتواضع ، كفرد من افراد هذه الامه ، ان هذا المعنى من معاني الثورة التي فجّرها عبد الناصر : معنى قيامها على العلم واهتدائها بنوره واشتعالها بناره هو المعنى الذي يحسن بنا تمثله وتجسيده في سلوكنا الفردي وتصرفنا القومي وفاء للرسالة الاصيله التي حملها عبد الناصر وصيانة وتعميقا لكفاحنا في سبيل التحرر والبناء . لقد كانت تحركاتنا حتى الان في كثرتها الغالبة ردود فعل لتحركات غيرنا ، فان لنا ، كما قال هو، «ان ندرك ان موقف رد الفعل مهما كانت استجابته مخلصة لم يعد كافيا . لقد وصلنا بمرحلة الانطلاق ، ووصلت بنا ، الى حيث يتعين علينا ان نتحمل مسؤولية المبادأة ، وان نأخذ موقف العمل الايجابي وان نفرض على الظروف ، ومن فوقها ، ارادة العمل الوطني واهدافه . وذلك لا يمكن ان يتحقق الا بقيام العلم بدوره كاملا وشاملا . على اني اقول اكثر من ذلك ، اقول بان موقف رد الفعل في حد ذاته يتحتم ان يكون علميا» (٤) .

ان وفاءنا لهذه الدعوة الجليلة القدر البعيد الاثر يفرض علينا ، شعوبا وحكاما ، ان نضاعف الجهد ونبذل الموارد — بل ان نمضي بثورية لا تهن ولا تني — في قلب مجتمعاتنا المتخلفة الى مجتمعات علميه ، تقدمية حقا . وليس معنى العلم هنا مجرد استخدام الادوات والتقنية الحديثة كما يعتقد البعض . فما هذا سوى مظهر من مظاهر هذا المعنى . اما الجوهر فهو الاسلوب المحقق المدقق ، الاسلوب الملتزم المنتظم فكرا وعملا ، الذي يجابه الواقع على حقيقته ، ويكشف علله وسبل معالجتها ، ويحشد الموارد والامكانات لهذه المعالجة ، ويميز اولوياتها ومراتبها ، ويخطط تخطيطا دقيقا لمراحلها ، ويمضي في تنفيذها بارادة صادقة وتصميم حاسم . ان هذه الارادة وهذا التصميم يجب ان ينفذا الى اعماق نفوسنا ويتحققا في جميع سياساتنا وخططنا واعمالنا ، شعوبا وحكومات (٥) .

عندما حضر القائد الرائد احتفال جامعة القاهرة بيوبيلها الذهبي في ٢١ ديسمبر عام ١٩٥٨ ، قال في مطلع خطابه : «... وانما جئت اليوم لاني اريد ان احمل الجامعة ، على مسمع من الشعب العربي كله وعلى مرأى منه امانة المستقبل» (٦) . ولست اشك في انه عنى بالجامعة حينذاك جميع مؤسسات العلم والبحث العلمي. ولست اشك كذلك في ان نظرته الخارقة تعدت هذه المؤسسات ، لتشمل شعوبنا العربية كافة ، ولتحفزها الى التجهز بالعلم وبالقدرة الفاعلة الصادرة عنه ، صيانة لكفاحها ، وضمانا وتعميقا لثورتها ، وتحقيقا لمطامحها في الحرية والسيادة ، والكرامة والعزة .

ما اجلها امانة — امانة المستقبل — يحملنا اياها جميعا عظيمنا الراحل ! عسى ان نكون لها اوفياء وبها جديرين !

قسطنطين زريق

---

(١) «خطاب السيد الرئيس جمال عبد الناصر في عيد العلم» في مجموعة خطب وتصريحات وبيانات الرئيس جمال عبد الناصر (القسم الثاني : فبراير ١٩٥٨ — يناير ١٩٦٠) ، مصلحة الاستعلامات، الجمهورية العربية المتحدة ، ص ٦٦١

(٢) الميثاق الوطني ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ص ١٢١

(٣) الاهرام ، العدد ٢٨٤٩٤ ، تاريخ ١٥-١٢-٦٤ ، ص ٣

(٤) الاهرام ، العدد ٢٨٤٩٤ ، تاريخ ١٥-١٢-٦٤ ، ص ٣

(٥) نص الكلمة التي القيت في ذكرى اربعين جمال عبد الناصر في قصر الاونسكو ببيروت .

(٦) قال الرئيس ، مجموعة خطب واحاديث الرئيس جمال عبد الناصر ، دار الهلال ، ص ٤٦٥